التطور في الفنون الرافدينية :

ان الحديث عن التطور في الفنون الرافدينية يعني اننا امام تشكيلات خطابية على المستوى الفكري والفني تترتب عليها تحولات تفرضها طبيعة كل مرحلة من مراحل التطور وتكيف الانسان الرافديني مع محيطه بما يعني ثمة حذف او اضافة تتضمن تغيرات في بناء الاشكال بالانتقال من التبسيط الى الاشكال المركبة . ومن خلال تتبع التسلسل التاريخي لحضارة وادي الرافدين واهم انجازاتها بدأ من اكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات الى اكتشاف الكتابة تطفوا فاعلية نمو الفكر الرافديني وتطوره و يعزز ذلك النمو الانجازات الفنية بوصفها المعادلات الصورية لحركة الفكر بما يؤكد محاذاة الفن للمعرفة في تطوره ولفهم طبيعة التحولات الفكرية و الفنية تقتضي الضرورة المرور بالادوار التاريخية للحضارة الرافدينية والتي صنفها الباحثون كالاتي

- عصر فجر الحضارة
- عصر فجر السلالات
- العصر الاكدي
- العصر السومري ويشمل (القديم ، الوسيط ، الحديث

شكل (١)

تعود فترة فجرالحضارة الى ٥٠٠٠ ق . م وقد مرت بأدوار عرفت بأسماء القرى او المدن الي نشأت فيها حسونة ، سامراء، حلف، العبيد، الوركاء ، جمدة نصر .ومن اهم انجازات فجر الحضارة اكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات وتشييد المساكن فضلاً عن صناعة الفخار وفن النحت التي ارتبطت تارة بجانب وظيفي واخرى بجانب اقتصادي او عقائدي ، فقد ابتكر الانسان الاول معادلات صورية كوسيلة دفاعية بعد ان افزعته الطبيعة بظواهرها الكونية فسعى لأيجاد رموز تقربه من هذه الطبيعة ومن اهمها تمثال الالهة الام التي صورت بهيئة جسد انثوي ضخمت بعض اجزاءه وعلى نحو خاص الاجزاء التي تتعلق بعملية الخصب والولادة وهنا يلاحظ نزوع الشكل نحو التبسيط واختزال العلاقات التشريحية مع اختفاء ملامح الوجه شكل (١) فعلى مستوى " النحت المجسم فأنه لم يتجاوز النحت الشكل التعبيري ...فقد كانت تماثيل الذكور والاناث تعمل من الطين على هيئات

تختلف عن الطبيعة تماما وكانت بعض الاجزاء من الجسم يبالغ في صوغها بينما كانت اجزاء اخرى تعمل بلا عناية "[1] على انه مع اكتشاف الكتابة ونضوجها خلال عصر فجر السلالات سنة ٢٨٠٠ ق .م. او ما يعرف بالعصر السومري القديم أو عصر دويلات المدن الذي استمر ستة قرون نجد نمواً في تشكيل الملامح مع استمرار أختزال العلاقات التشريحية للجسد كما في شكل (٢) تماثيل زوريخ وباريس وتمثال الملك دلو ملك ادب ٢٥٠٠ق. م شكل (٣) وثمة نمواً وتطوراً للاشكال الفنية بحلول (٣٢٠٠ ق.م) كما في شكل (٤) الذي صور تمثال حاكم مدينة الوركاء بنوع من الواقعية من خلال الاهتمام توعاً ما بالقيم التشريحية والتجسيد الواقعي لكف اليد وكذلك تفاصيل العينين واللحية التي جاءت بهيئة حزوز متموجة للايهام بشكل الشعر بعد ان كانت اللحية في تماثيل زوريخ وباريس بهيئة نصف دائرة وهنا ينضح التطور من خلال الانتقال من الاجواء الروحانية التي تميزت بها تماثيل فجر عصر السلالات المبكر الى الاجواء الدنيوية والاقرب نوعا ما الى الواقع في تماثيل عصر فجر السلالات المتأخر " فأن النحات السومري في فترة الوركاء وعصر جمدة نصر استطاع ان يبتدع صورة بشرية كاملة ومجسمة من الحجر وهذه الصورة تتفق مع روح العصر الذي امتزجت فيه المادة بالروح "" [2]

شكل (٢)

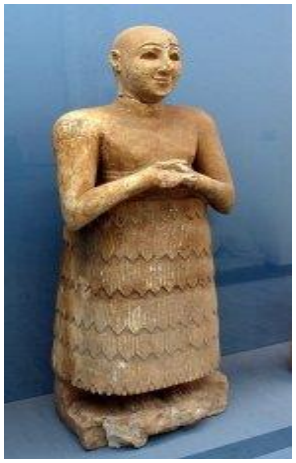

شكل (٣)

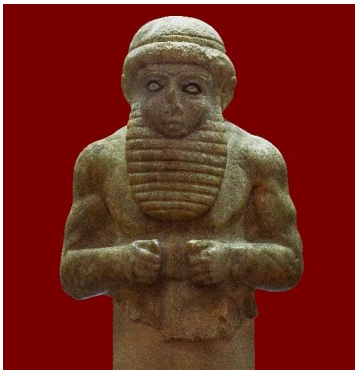

شكل (٤)

[1]) انطون مورتكات : الفن في العراق القديم ، تر . عيسى سلمان وزميله ، الجمهورية العراقية وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة ج١ ، ص٣١

[2]) نفسه : ص٣٦

وهكذا فأن أهم ما يميز (بنية) الفن على أرض الرافدين، هو سمة التحول المتأتيِ من (حراك) الأساليب الفنية عبر العصور الحضارية المختلفة .فما أن يستقر اسلوب خاص ويطبعِ المنجزات الفنية بطابعه الخاص، فأنهً يتعرض (للتدهور)، ليحل محله اسلوبّ آخر (يوحد) الاشكال بنظم من العلاقاتِ الشكلية الخاصة به. ومدعاة مثل هذه التحولات المرتبطة في معظم الاحوال بالتجديد والنشاطية، هو تحول منظومة العوامل المهيمنة في بنية الفن من حال الى حال آخر؛ فالاسلوب السومري المفعم بالروحية الدينية، الذي مغنط الاشكال بدائرة وعي الجمال الروحي فيِ (الميتافيزيقي) الكامن في دلالات منجزاته، ًنحو المطلق، وكشفا بوصفها خطابا للامرئيات بقوالب المرئيات. استبدل بالاسلوب الاكدي، المتصف بالرؤية العلمانية للحياة: فتحركت منظومة الأشكال لتؤكد فكرة الخاصية الملحمية واعمال البطولة في دلالاتها التعبيرية، ًكبيرا للآلهة، فلم يعد الملك الأكدي كاهنا لجهات العالم الاربع .بل اصبح سيدا وتلك هي (حيوية) الفن على ارض الرافدين [1]

ومع صعود الامبراطورية الاكدية خلال الفترة ٢٢٠٠ – ٢٤٠٠ والاستقرار السياسي والاقتصادي نجد صعوداً ايضاً للجانب الدنيوي لتطفوا النزعة الواقعية في الفن وميولاً للاهتمام بالتفاصيل والعلاقات العضوية فعلى مستوى المواضيع الدينية ورغم الجانب الروحاني لصورة المتعبد الا ان لتمثال الاله ابيه ايل شكل (٥) مقاربات واقعية من خلال تشريح الجسد والعينين التي لونت بالابيض والاسود وهنا نلاحظ رؤية جديدة تمثلت بهيئة الجلوس بعد ان كانت التماثيل تنفذ بوقفة امامية وساقان ملتصقان وقد دخلت المواضيع السردية وعلى نحو خاص مواضيع الحرب والعسكرة كما في الشكل (٦) التي تصور جنود الإمبراطورية الأكدية على مسلة النصر لنارام سين، حوالي ٢٢٥٠ ق . م وقد امتازت الاشكال مرونة الاشكال بنوع من المرونة فضلاً عن زاوية النظرالجانبية وتحرراً للايدي المعقوفة ، بما يستدعي القول ان التطور هنا جاء على مستوى الانفتاح على العالم المادي فثمة صعود للواقع والجانب الانساني من خلال صياغة الاشكال على نحو اكثر قرباً من صورها الطبيعية وهذه تمثلت بأدخال الالوان للعينين والحركة والمرونة في الاجساد .

ومع عصر النهضة السومرية او ما يعرف بعصر الانبعاث السومري (نسبة الى محاولات بعث الادب والفكر السومري القديم إن عصر الانبعاث او لنقل عصر النهضة الجديد بقيادة اور– نمو، وقبله الأمير

[1]) زهير صاحب : فنون عصر النهضة السومرية (٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م) ، جريدة العرب الثقافي ، ٢٠١٢

كوديا حاكم مدينة لكش، أريد به بعث الحضارة والمدنية السومرية –الاكدية من جديد، بعد (الخمول) الذي إنتابها أيام سيطرة الكوتيين) نجد صعوداً لحركة الفكر والادب والعمران والاقتصاد ومثل ذلك الصعود وجد تطبيقاته في الفن الرافديني الذي اتجه نحو الواقعية على نحو اشد من الفترة السابقة فرغم الطابع اللاهوتي لتماثيل ذلك العصر الا انها نفذت بشكل اقرب للواقع وهو ما يتضح في تمثال الملك كوديا شكل (٧) الذي تميز من خلال وضعيته التي اتخذت صورة المتعبد ولكن تنفيذه امتاز بحرفية كشفت عنها الاهتمام بملامح الوجه وتفاصيل تشريح الذراعان و الايدي والارجل وكذلك طيات ونقوش العباءة فضلا عن نقوش غطاء الرأس فثمة مزاوجة بين الروح اللاهوتية السومرية القديمة وواقعية عصر الانبعاث ،

شكل (٥)

شكل (٦)

شكل (٧)